فلسطين هي ملك لهم، وأنها «ارض الميعاد» وأنهم «شعب الله المختار»، ولا يحق لأي كان الوجود فيها سواهم. بيد أن الوقائع التاريخية تثبت عروبة فلسطين قبل الفتح العربي لها بنحو خمسةوثلاثين قرنا (اي منذ سنة ٣٥٠٠ ق.م عندما وصل الكنعانيون إلى الأرض التي سميت باسمهم فيما بعد (ارض كنعان). وكان الفينيقيون الذين هم فريق من الكنعانيين قد اتخذوا من الساحل الممتد من اللاذقية في الشمال حتى جبل الكرمل في الجنوب مقرا لهم، وبعده بأربعة عشر قرنا، وجميع سكانها عرب أقحاح، وهذا ما يثبت عروبة هذه الارض على مدى خمسة وأربعين قرنا متواصلة.

اما الفترة القصيرة التي سيطر فيها العبرانيون على فلسطين، فكانت خلال حكم الملك داوود وابنه سليمان، ولا تتجاوز هذه الفترة السبعين عاما، وذلك عندما تمكن الملك داوود من إقامة مُلْك للعبرانيين في القرن العاشر ق.م ثم خلفه ابنه سليمان الذي يعتبر من أقوى ملوكهم؛ ورغم قوته وشهرته فإنه تحالف مع الفينيقيين الذين ساعدوه ببناء الهيكل الشهير في القدس. اما من ناحية ثانية، وخلال هذه الفترة من قوة العبرانيين وملوكهم، فقد كانت فلسطين تابعة لمصر وخاضعة لسيطرتها، بدليل انه عندما «تزوج الملك سليمان احدى اميرات الاسرة المصرية الحاكمة اقطعه فرعون مصر، كصداق لابنته، قرية (الجرار) بجانب مدينة (الرملة). وهذه الحادثة شاهد على أن الدولة اليهودية، حتى في أقوى أيامها، أي في عهد سليمان، كانت دولة رمزية، وأن السيادة الحقيقية كانت لمصر»[٦]. ثم انقسمت مملكة سليمان بعد موته إلى مملكتين: اسرائيل وعاصمتها السامرة. ويهودا وعاصمتها القدس. ولهذا تعتبر مملكتهم حدثا طارئا ليس إلا.

هذه النظرة الموجزة عن فلسطين، واليهودية والصهيونية، تسمح لنا بالدخول بصورة تفصيلية في الظروف التي أدّت الى نشوء الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر، والجذور التي انطلقت منها، والمراحل التي مرت بها، بالاضافة للخطوات السريّة والعلنية للدبلوماسية الصهيونية، وتلاقي أهدافها مع أهداف الدول الاستعمارية الاوروبية في تلك الفترة، وصولا للأهداف التي أعلنتها من خلال مذكراتها ومؤتمراتها ومباحثاتها مع المسؤولين الذين كانوا يمتلكون بأيديهم زمام المبادرة والتحكم بمختلف الامور. فمن الملاحظ، وعلى ضوء الدراسة التاريخية للمراحل التي مرّ بها الشرق العربي وفلسطين بصورة خاصة، أن هذه المنطقة كانت عرضة لسلسلة متواصلة من الفتوحات ولأهداف معروفة تماما، عاشت خلالها فلسطين وضعا مميزا، حيث أعطتها الحملات الصليبية، التي قامت في اواخر القرن الحادي عشر،طابع الخصوصية والأهمية اكثر من أية فترة اخرى، وكان تركيز الغرب الاستعماري على فلسطين يتخذ بعدا مهما في إطار النظر إلى أهمية المنطقة العربية من مختلف النواحي التي تتميز بها.

والواقع ان القرن التاسع عشر كان عصر انتصار القوميات في القارة الاوروبية. وكانت عملية التسابق الاستعماري والتكالب المحموم على القارة الأفريقية في هذا القرن نتيجة لبروز العامل القومي والمراهنات على الدور الأكثر قوّة وفعالية لدى هذه الأمم التي تؤكد فاعليتها عن طريق اتساع رقعة سيطرتها على المناطق المستعمرة والتابعة. في ضوء ذلك، ونظراً لواقع ان اليهود الذين كانوا يعيشون في هذه المجتمعات الاوروبية، والذين كانت زعاماتهم الدينية والصهيونية، تعتبرهم أرقى وأطهر المخلوقات على وجه الارض، أرادوا العمل وبشكل مشابه للحمّى القومية الاوروبية والسيطرة الاستعمارية، ووجدوا الفرصة ملائمة لتحقيق الحلم الذي راودهم باستمرار في «العودة إلى أرض الميعاد» وخلق «قوميتهم اليهودية» على ارض فلسطين العربية، ولو كان هناك فقدان وانعدام لمعظم العوامل المكوّنة للقومية انطلاقا من اللغة [٧] والأرض والتاريخ المشترك والعادات والتقاليد والاقتصاد والمصير المشترك، خصوصا بعد ان ثبت وبصورة جليّة أن العامل الديني ـ الذي يركز عليه الصهيونيون ـ لا يشكل عاملا من عوامل القومية.